آليات إنتاج الخطاب وتأويله من منظور نظرية المناسبة الحديثة لدان سبربر وديردر وولسن

*** محمد عبد الجبار**

أستاذ مادة اللغة العربية بالثانوي / بوزارة التربية الوطنية ـ المملكة المغربية.

*البريد الإلكتروني: Mohamedabdeljebar93@gmail.com

الاستلام	2025/4/14	المراجعة	2025/5/10	القبول	2025/5/28	النشر	2025/7/1

الملخص:

إن الاهتمام البالغ الذي أولته النظريات التداولية للخطاب، نابع من كونها نظريات مرنة تؤمن بالدور الفعال التي تلعبه الأنظمة اللغوية في سياق التواصل والتفاعل، وتقطع مع كل تحليل يطمس للغة حيويتها ويجردها عن ظروف استعمالها وسياقات ورودها، وهذا ما جعلها تنفتح على كل العناصر الخارجية المحيطة بعملية التخاطب من مقام، ومشاركين، وزمان، ومكان.. وتعمل على استحضارها لتأويل الخطاب والتوصل إلى المعاني المضمرة التي يقصدها المتكلم.

وعليه، يأتي هذا البحث للكشف عن بعض المبادئ المهمة التي طرحتها نظرية المناسبة الحديثة باعتبارها نظرية تداولية معرفية ظهرت نتيجة لاستفادة التداوليات من مباحث علم النفس المعرفي من جهة، وإعادة النظر في تحليلات غرايس حول الاستلزام الحواري من جهة أخرى، وبالتالي فإن هذا البحث يهدف إلى إبراز معالم الجدة التي جاءت بها هذه النظرية من خلال التوقف عند الآليات الجديدة المتحكمة في عمليتي إنتاج الخطاب وتأويله، ومحاولة وصف الكيفية التي يجري بها التواصل بين المتكلم والمخاطب.

الكلمات المفتاحية:

التداوليات، الخطاب، التأويل، التواصل، اللغة.

Mechanisms of Discourse Production and Interpretation from the Perspective of the Modern Relevance Theory by Dan Sperber and Deirdre Wilson

*** Mohammed Abdeljebbar:**

Professor of Arabic Language in Secondary School / Ministry of National Education – Kingdom of Morocco.

*Email: Mohamedabdeljebar93@gmail.com

Abstract:

The great attention given by pragmatic theories to discourse came from being flexible theories that believe in the effective role played by linguistic systems in the context of communication and interaction; This is what made it open to all the external elements that surround the process of communication, such as context, participants, time, and place... and it works to bring them to interpret the speech and reach the implicit meanings intended by the speaker.

This research shows some important principles proposed by the Modern relevance Theory - as a cognitive pragmatic theory- and it also seeks to focus on the new mechanisms controlling the processes of speech production and interpretation and attempts to describe how communication takes place between the speaker and the hearer.

Key words: Pragmatics, Discourse, Interpretation, Communication, Language.

المقدمـــــة:

جاءت التداوليات لتكشف عن الأبعاد الاستعمالية التواصلية للغة، ولتؤسس لمشروع خطابي تواصلي يجعل من المعنى المقامي المقصود قطب الرحى الذي تدور عليه الأبحاث، وبذلك استطاعت - بفضل المعطيات الجديدة التي طرحتها- أن تقدم تصورا جديدا للتواصل الإنساني يقوم على الجمع بين الأبنية اللغوية والعناصر السياقية المختلفة بهدف التوصل إلى فهم أفضل لطبيعة التواصل.

وإذا كان الشغل الشاغل لكل النظريات التداولية الحديثة هو وصف العملية التي يتم بها إنتاج الكلام وتأويله، فإن نظرية المناسبة الحديثة برزت لتقدم تفسيرا جديدا لعملتي الإنتاج والتأويل، يقوم على مراعاة الأسس السيكولوجية المعرفية في عملية التواصل والتركيز على الدور الفعال الذي يقوم به السياق التواصلي في عملية التأويل، كما أقرت بأهمية التواصل الاستدلالي الذي طرحه الفيلسوف بول غرايس، وبذلك فقد عملت هذه النظرية على توظيف المعطيات اللغوية والمعرفية في معالجة الخطابات وتأويلها، وبينت أن للآليات المعرفية السيكولوجية دورا مهما في عملية بناء وفهم العبارات اللغوية، وعليه فإن قيام هذا النظرية وجّه الأبحاث التداولية نحو منعطف معرفي، وهو ما جعلها تعد أبرز ممثل للانعطاف التداولي المعرفي عند اللسانيين وفلاسفة اللغة الغربيين.

تبعا لما سبق سيحاول هذا البحث الإجابة عن سؤال إشكالي مهم يمكن صياغته على النحو الآتي:

كيف تنظر هذه النظرية إلى عملية التخاطب عموما؟ ويمكن تفريع هذا الإشكال إلى الأسئلة الآتية:

-ما الأبعاد والتصورات المعرفية الجديدة التي أضافتها هذه النظرية لتفسير عملية التخاطب الإنساني؟ وأين تتجلى استفادتها من علم النفس المعرفي؟ وما أوجه الاتفاق والاختلاف بينها وبين ما طرحه غرايس حول الاستلزام الحواري؟ وكيف تتم عملية تأويل الأقوال في ظل هذه النظرية؟

1. ظهور نظرية المناسبة باعتبارها نظرية تواصلية معرفية

تعد نظرية المناسبة نظرية تداولية معرفية، أرسى دعائمها كل من الأنتروبولوجي الفرنسي: دان سبيربر Dan Sperber، واللسانية البريطانية: ديردر وولسن Deirdre Wilson، في كتابهما المشترك الذي نشر لأول مرة سنة 1986 بعنوان: "المناسبة: التواصل والإدراك"، وقد ظهرت نتيجة الانفتاح الذي عرفته التداوليات على مختلف الحقول المعرفية أهمها علم النفس المعرفي، الذي اعتبرته إطارا مرجعيا لها ساعدها كثيرا في محاولتها الكشف عن الأسباب التي تقف خلف عمليتي إنتاج الخطابات وتأويلها من قبل المتكلمين، وبفضله أعادت النظر في مجموعة من الآليات والمفاهيم التي تم طرحها من قِبَل رواد النظرية التداولية الأوائل، لتنحو منحى جديدا يركز على أهمية الجوانب السيكولوجية في تفسير عمليات التواصل، وبذلك استطاعت هذه النظرية أن تخلق لنفسها مكانة متميزة ضمن النظريات التداولية الحديثة، بفضل ما أرسته من آليات تحليلية جديدة تقدم وصفا دقيقا لكيفية جريان عملية التواصل.

تنطلق هذه النظرية في تفسيرها لعملية التواصل الإنساني، من فرضية سيكولوجية مفادها أن كل البشر يتوفرون على قدرة عقلية فردية تمكنهم من البحث عن المعلومات الأكثر مناسبة لواقعهم، وهذه القدرة هي التي يتم استعمالها لتأويل الجمل والعبارات في سياقات تواصلية مختلفة، وقد انطلقت نظرية المناسبة في صياغة مبادئها وفرضياتها من التحليلات المهمة التي طرحها الفيلسوف البريطاني بول غرايس Paul Grice حول مبادئ التعاون والتواصل الاستدلالي، ومن المفاهيم والأفكار التي ناقشها علماء النفس المعرفي، خاصة مفهوم قالبية الذهن الذي ارتبط بالفيلسوف الأمريكي جيري فودور.

1.1. نظرية المناسبة وإعادة النظر في تحليلات غرايس

أسس الفيلسوف البريطاني: بول غرايس لمشروع تواصلي جديد انتقل به من دراسة الشروط التي تحكم استعمال العبارات اللغوية كما هو الحال عند أوستين وسيرل، إلى التركيز على الأسس والمبادئ التي ينبني عليها التواصل عموما، من خلال تحديده لقواعد عامة يجب أن يمتثل لها كل من المتكلم

والمخاطب، وأن يتعاونا فيما بينهما لإنجاح العملية التواصلية، ونتج عن ذلك صياغة مبدأ عام سماه مبدأ التعاون Cooperative principle وسعى إلى تقسيمه إلى قواعد فرعية حددها على الشكل التالي: (الباهي، 2012، صفحة 126)

1- قاعدة الكم Quantity: ترتبط بكمية المعلومات التي يجب تقديمها في التخاطب وتتحقق بقاعدتين:

- لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته.
- لا تجعل إفادتك تتجاوز حد المطلوب.

2- قاعدة الكيف Quality: حاول أن تجعل إسهامك التخاطبي صادقا:

- لا تقل ما تعتقد أنه غير صادق
- لا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

3- قاعدة الملاءمة أو المناسبة Relevance: الهدف منها منع المتكلم من أن ينزلق إلى مقاصد أخرى مغايرة مع تلك التي استهدفها الخطاب، وتقول:

- ليلائم قولك مقامك.

4- قاعدة الجهة Manner: ترتبط بالكيفية التي يجب أن يقال بها الكلام، وتندرج تحتها:

- اجتنب غموض Obscurity التعبير
- اجتنب اللبس Ambiguity
- كن موجزا في كلامك
- رتب كلامك.

إن الغاية المرجوة من هذه القواعد هي تنظيم العملية التواصلية والسهر على إنجاحها، إذ إن احترامها -بالإضافة إلى المبدأ العام- يؤدي إلى تبليغ المقاصد، والإخلال بها أو بشرط منها يجعل المخاطب يصرف كلام مخاطبه من معناه الظاهر إلى معنى مضمر وخفي يستدعيه المقام، وهو ما سماه غرايس بالاستلزام الحواري Conversational implicature ، وعليه، فإن قدرة المخاطب على التعرف على قصد المتكلم في أي علاقة تواصلية أيا كانت، ليعد دليلا مهما على نجاح هذه العلاقة، ثم إن هذا النجاح ليرتبط ارتباطا كبيرا بتعاون المتكلم مع المخاطب بمحاولة إظهار قصده حتى لا يفهم المخاطب من الكلام خلاف ما قصده، لذلك "فإن قصد المتكلم إبلاغ محتوى دلالي إلى المخاطب لا يتحقق إلا إذا تعرف هذا الأخير على قصده" (الباهي، 2012، صفحة 127)

وإذا كان غرايس قد أكد على أن الوصول إلى قصد المتكلم يتطلب من المخاطب القيام بعمليات استدلالية بمساعدة السياق الخارجي، والمعارف المشتركة التي بينه وبين المتكلم، فإن سبربر وولسن قد اتخذا من مقاربة غرايس الاستدلالية نقطة بداية لهما، معتبريْن أن الهدف من التواصل يكمن في شرح كيفية استنتاج المخاطب مقصود المتكلم انطلاقا من الأدلة السياقية المقدَّمة، لذلك فالاستدلال -في نظرهما- هو عملية ذهنية مهمة في التواصل، يستطيع عبرها المخاطَب أن يتوصل إلى قصد المرسِل بعد المرور بمجموعة من العمليات الأخرى كفك التشفيرات اللغوية، باعتبارها جزءا من وسائل الاستيعاب التواصلي، ولكونها تطرح عددا من التأويلات الممكنة، يستطيع المخاطب بعدها أن يختار أكثرها مناسبة لقصد المتكلم اعتمادا على التأثيرات السياقية المختلفة، لذلك عُدّ التواصل الاستدلالي ركيزة أساسية تأتي بعد عملية التشفير وفك التشفير، والتي لا يمكن الاستغناء عنها في أي علاقة تواصلية، بخلاف التواصل المشفر الذي اعتبره كل من سبربر وولسن تابعا لهذا التواصل الاستدلالي.

لذلك فنجاح عملية التواصل يقتضي تحقيق المناسبة بين المقاصد الإبلاغية للمتكلم، والجهود الاستدلالية للمخاطَب، كما يتطلب -في بعض السياقات- من المتكلم التدخل لمساعدة مخاطبه على تأويل العبارات وجعلها أكثر وضوحا، وذلك بتبديل عباراته بعبارات أخرى بعيدة عن التعقيد والغموض، ومن ثم يصير الهدف من العملية التواصلية هو "تعديل محيط المخاطب بحذف شيء أو إضافته أو تقويته لتصبح بذلك عملية تواصلية استنتاجية" (الباهي، 2012، صفحة 146)

وإذا كانت نظرية المناسبة قد أخذت عن غرايس مبدأ التواصل الاستدلالي، فإن توجهها المعرفي واهتمامها بالآليات السيكولوجية في تفسير التواصل، أدى بها إلى معاودة النظر في التحليلات التي طرحها، لتقر بأن التواصل لا يتم عن طريق الالتزام بقواعد تعاونية محددة، ولتوضح أن الاستلزام ليس "خرقا للقواعد التداولية، بقدر ما يتصل بمجموع الفرضيات التي يستحضرها المخاطب ضمن سياق كلامي محدد، من أجل الحصول على تأويل ملائم للملفوظ، وهو ما سماه الباحثان استلزامات سياقية Implications Contextuells" (ختام، 2016، صفحة 125) ، كما أوضحت -من جانب آخر- أن مذهب غرايس القاضي باعتبار المناسبة مجردَ قاعدةٍ من القواعد يمكنها أن تتعرض للاحترام أو للخرق، هو مذهب يتنافى مع المبدأ المعرفي الذي يرى أن البحث عن المناسبة يعد سمة من سمات الإدراك البشري (Wilson & Sperber, 2004, p. 608)، وبالتالي فإن النظر إلى هذه القاعدة ينبغي أن يتخذ وضعا خاصا، وذلك يتطلب "إعادة تحديدها بالكف عن النظر إليها كقاعدة، بل باعتبارها مبدأ يشكل أصل العملية التواصلية" (الباهي، 2012، صفحة 146) وبذلك، فإن المناسبة وحدها كافية لتفسير عملية التواصل.

2.1. نظرية المناسبة والاستفادة من أفكار جيري فودور

حاول الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي جيري فودور Jerry Fodor في كتابه: The modularity of Mind أن يقدم نظرة معرفية حول الآليات المميزة للذهن البشري وطرائق اشتغاله، من خلال التركيز على الهندسة الوظيفية للعقل Functional Architecture of Mind واعتبار الذهن البشري شبيها -إلى حد كبير- بالهندسة الحاسوبية، فما ينطبق على الآلة (الحاسوب) من مدخلات ومخرجات ومعالجات.. هو نفسه ما يقوم به ذهن الإنسان حين يتلقى المعارف أو المعلومات.

وقد عمل على تطوير نظريته حول مفهوم قالبية الذهن اعتمادا على أصولها الأولى (علم النفس الكلاسيكي)، ووقوفا عند الأفكار السابقة للفلاسفة وعلماء النفس حول الملكات السيكولوجية البشرية، التي تستند إلى علم نفس الملكات، هذا العلم الذي يعتبر "كل طاقة من طاقات الذهن البشري بمثابة ملكة معزولة إن قليلا أو كثيرا عن غيرها من الملكات" (روبول و موشلار، 2003، صفحة 73) وبذلك أصبح النقاش مفتوحا منذ القرن الثامن عشر حول "ما إذا كان الإنسان يتوفر على ملكات عامة تؤهله لاكتساب كل أنماط المعارف، أم أن كل نمط منها يتطلب وجود ملكة خاصة مستقلة عن غيرها، بعبارة أخرى هل يتم اكتساب اللغة والموسيقى والحساب بواسطة ملكات عامة، أم بواسطة ملكات خاصة، أي ملكة لاكتساب اللغة وملكة لاكتساب الموسيقى وأخرى لاكتساب الحساب" (البوشيخي، 2012، صفحة 52). وقد نتج عن هذا النقاش اعتبار الملكات العامة ملكات أفقية Horizontal Faculties حيث يتم الحصول على المعارف والمعلومات من خلال التفاعل بين هذه الملكات مثل الذاكرة والخيال والاهتمام، والحس، والإدراك.. في حين عُدّتْ الملكات الخاصة ملكات عموديةVertical Faculties، وتبنى هذا الطرح الأخير العالم البيولوجي الألماني جوزيف غال Joseph Gall الذي رأى أن "الملكات العامة (الأفقية) هي مجرد خيال، بل إن لكل ملكة ميزتها الخاصة (Fodor, 1983, p. 14)، ويعطي مثال بالموسيقي، فهو يرى أنه لن يكون موسيقيا إذا لم يدرك علاقة النغمات، إذا لم يكن لديه ذاكرة للموسيقى، إذا لم يتمكن من الحكم على اللحن والانسجام.... وبالتالي فإن الاهتمام والإدراك والذاكرة والحكم والخيال ليست سوى طرق عمل مختلفة لكل القدرات الأساسية.

وقد تأثر فودور بأفكار غال Gall حول أنظمة الذهن البشري، وأعاد صياغة هذه الأفكار بأسلوب

أكثر إقناعا وعلمية، حيث قام بتصنيف وظيفي للعمليات السيكولوجية الذهنية، وتوصل إلى أن اشتغال هذا الذهن يكون بطريقة تراتبية، وفقا لثلاث مراحل هي: (Fodor, 1983, p. 41) المحولات Transducers وأنظمة الدخل Input systems والمعالجات (الأنظمة) المركزية Central systems، وأن معالجة المعطيات أو المعلومات تتم عبر هذه المراحل الثلاث، حيث تعمل المحولات على تلقي المعلومات من العالم الخارجي مهما كان مصدر التقاطها (سمعي، بصري، لغوي...) وترجمتِها لتوافق أنظمة الدخل وتُعالَج وفق إطار قالبي يضم كل الوسائط الحسية الإدراكية Sensory-perceptual modes (السمع، البصر، اللمس، الذوق، الشم)، إضافة إلى الإطار القالبي الخاص باللغة (Fodor, 1983, p. 47)

وتمكِّن هذه الأنظمة من تقديم تأويل جزئي للمعطيات المقدمة، لا يكتمل إلا بالانتقال إلى الأنظمة المركزية التي تقوم بمقارنة المعطيات التي تقدمها أنظمة الدخل مع ما هو موجود في الذاكرة، لاختيار أنسب الفرضيات الموافقة لما هو موجود في العالم الخارجي، وقد استوحى سبربر وولسن هذه الأفكار موضحيْن أن معالجة الملفوظات اللغوية تتم ضمن سيرورة مكونة من مرحلتين:

"مرحلة أولى قالبية تعنى بفك السنن اللغوي، خرجها عبارة عن بنية منطقية، وهي بنية تغدو دخلا لمرحلة ثانية وأخيرة ذات طبيعة استدلالية، وتتثمل وظيفة المرحلة الأخيرة في إثراء البنية المنطقية سياقيا من خلال بناء فرضية أو فرضيات حول المقاصد الإخبارية للمتكلم" (ختام، 2016، صفحة 122)

وبواسطة هذه النظرية يمكننا رسم صورة أكثر شمولا للتفاعل الإنساني عبر اللغة يبسط فيها المشاركون في الخطاب عالما كاملا من المعتقدات والمعارف المشتركة ومقدمات الاستدلالات.. التي تفضي في أغلب الحالات إلى الفهم الصحيح للخطاب، ومن ثم فقد اتضح لكل من سبربر وولسن "أن الإنتاج والفهم يمثلان التناول المعرفي على المستوى الذهني للباعث والمتلقي الذي يتم عبره التأليف بين الموضوعات اللسانية التي بينيها المتحاوران انطلاقا من معرفتهما للعالم الخارجي، وبواسطة عمليات ينظر إليها وكأنها جزء من نموذج ذهني" (الباهي، 2012، صفحة 145)

2. التواصل في نظرية المناسبة: من أنموذج الشفرة إلى أنموذج الاستدلال

لقد ارتبط التواصل منذ زمن بعيد بالمزاوجة بين تشفير الرسائل اللغوية Encoding وتفكيكها Decoding، ومن ثَم اعتُمِد أنموذجا قائما بذاته، تكمن ميزته الأساسية في كونه يحمل قدرة كبيرة على تفسير التواصل، وإيصال الأفكار من المتكلم إلى المخاطب، إلى جانب تفسير كيفية إرسال الرموز والإشارات اللغوية ونقلها عبر قناة التواصل.. لذلك فنجاح عملية التواصل –حسب هذا الأنموذج- يتوقف على إمكانية فك الشفرة بشكل صحيح بعيدا عن التشويش الذي قد يصيب قناة التواصل، لكن، كثيرا ما نجد أن التواصل الإنساني قد ينجح بدون أن تكون الشفرة اللغوية أمرا ضروريا:

أ- كيف حالك اليوم؟

ب- يتناول علبة أسبرين ويريه إياها.

فالشخص "أ" يستطيع أن يستدل على مقاصد الشخص "ب" انطلاقا من البينة أو الدليل الذي وفره له الشخص "ب"، وهذا الدليل لا تتدخل فيه الشفرة اللسانية، لذلك فالوصول إلى القصد هو الهدف من التواصل، من هنا أظهر أنموذج الشفرة سلبيات عديدة من ضمنها: أنه لا يحقق الكفاية الوصفية، فهو -وإن كانت له قوة تفسيرية كبيرة- فإن عيبه هو ضعف كفايته الوصفية، فهو لا يفسر -أحيانا- كيف يمكن للسامع أن يفهم قصد المتكلم، خاصة في التواصل غير اللغوي.

ولتجاوز هذا النقص اقترح كل من دافيد لويس وبول غرايس أنموذجا جديدا للتواصل أُطلِق عليه: الأنموذج الاستدلالي Inferential Model، وتبعهما في ذلك سبربر وولسن، حيث لاحظا منذ البداية على أن معنى العبارة لا يمكن التوصل إليه بواسطة فك الشفرة اللغوية، بل لا بد من القيام بعمليات

استدلالية ، وهو ما أدى بهما إلى القول بأنه "من الساذج التفكير بأن التواصل هو ببساطة فك شفرة رسالة اعتمادا على وسيلة اللغة الثمينة، على الرغم من أن اللغة هي أداة التواصل الأكثر استعمالا" (فرانتيسكويوس، 2014، صفحة 121)، وعليه حاولا أن يجمعا بينهما بطرائق متنوعة، اعتمادا على الطرح الذي جاء به أغلب علماء التداوليات الحديثة، وفلاسفة اللغة وعلماء اللغة النفسيين خلال العشرين عاما الماضية القائل "بأن التواصل اللغوي يتضمن عمليات تشفير وعمليات استدلالية. وهكذا فإن كلا الأنموذجين: التشفير والاستدلال يمكن أن يسهما في دراسة التواصل اللغوي" (فرانتيسكويوس، 2014، صفحة 121)

وعملا بعد ذلك على تطوير هذا الطرح بتركيزهما على العمليات الاستدلالية أكثر من غيرها، واعتماد أنموذج الشفرة جزءا من المقدمات المنطقية الأولية لعملية الاستدلال، أي أن المعنى اللغوي الذي يتم التوصل إليه بواسطة فك الشفرة هو واحد من المدخلات الاستدلالية (Inferential Inputs) التي تسهم في الوصول إلى مقاصد المتكلم، لذلك فتفسير التواصل عن طريق استعمال الشفرة فقط، لا يكفي لتزويدنا بدليل كامل عن مقاصد المتكلم، من هنا يرى سبربر وولسن أن "استعمال الشفرة له دور ما في عملية التواصل من دون أن يفسرها كليا" (فرانتيسكويوس، 2014، صفحة 121)

وإذا كان النحو التوليدي يقوم على المزاوجة بين التمثيلات الصوتية والتمثيلات الدلالية للجمل التي يوفرها أنموذج الشفرة، فإنه يبقى قاصرا عن إدراك بعض الأفكار التي توفرها القولات Utterances، لذلك يرى سبربر وولسن أنه "ليس من المشروع أو الجائز أن نتجاهل الاختلافات بين التمثيلات الدلالية للجمل والأفكار التي تُستعمَل القولات لتوصيلها" (فرانتيسكويوس، 2014، صفحة 32)

وهذا ما دعاهما إلى التمييز بين الجمل والقولات (الملفوظات)، حيث اعتبرا أن التمثيل الدلالي للجمل لا يأخذ بعين الاعتبار الخصائص غير اللغوية مثل زمن التلفظ ومكانه، وهوية المتكلمين ومقاصدهم، أما الأنموذج الاستدلالي فإنه يقيم تمييزا بين التمثيل الدلالي للقولات وتأويلها، فالنوع الأول ينتمي إلى علم النحو، أما النوع الثاني فينتمي إلى التداوليات، ولتوضيح ذلك يسوق سبربر وولسن الأمثلة التالية (Sperber و Wilson، 1995، صفحة 10):

1- أنا سآتي غدا.

2- بيل طويل القامة.

3- هدية هند جعلتها جد سعيدة.

فالنحو التحويلي مثلا لا يمكنه أن يحدد لنا المقصود بكلمة: "أنا"، و "بيل" و "هند" ولا اليوم الذي قيلت فيه كلمة "غدا" كما أنه ليس بوسعه أن يقدم أي معلومة عن الكيفية التي تمكن السامع من تحديد وقت النطق بالقولة وهوية المتكلم من خلال توظيفه للمعلومات غير اللغوية، وهذه النماذج من التأويل تتضمن تفاعلا بين البنية اللغوية والمعلومات غير اللغوية.

يقول سبربر وولسن "إن النحو لا يستطيع أن يساعدنا إلا في تحديد احتمالات التفسير، أما كيف سينتقي المتكلم من بين هذه الاحتمالات الاحتمال الملائم لتأويل الأقوال، فهذا إشكال لا نجد له إجابة في النحو التوليدي، وإنما نجد له إجابة في التداوليات" (Sperber و Wilson، 1995، صفحة 10)، لذلك فحينما يقول قائل مثلا: "كم هو رجل شريف جون" فلا يمكننا بأي حال- إذا اقتصرنا على اللغة وحدها- أن نعرف مقصود القائل من بين مجموعة من الاحتمالات، فقد يكون المتكلم صادقا أو ساخرا أو متهكما.. ولمعرفة ذلك وجب علينا اختيار التأويل المناسب الذي تمدنا به العناصر غير اللغوية وأهمها السياق الخارجي. فالتواصل الناجح يتحقق حينما يستدل المخاطب -من خلال القولات- على مقصود المخاطب منها، ومن هنا يرى سبربر وولسن أن القولات "لا تستعمل لنقل الأفكار فقط، وإنما أيضا للكشف عن توجه المتكلم بشأن الأفكار المعبر عنها وعلاقته بها" (سبيربر و ولسن، 2016، صفحة 34)

كما يمكن للقولات أن تحمل معاني أخرى غير صريحة إلى جانب الأفكار الصريحة التي تُستنبط من التمثيلات الدلالية للجملة المنطوقة، وهو ما سماه غرايس بالدلالة غير الطبيعية، فإذا خاطب شخص ما صديقة قائلا: "هل تعلم الوقت الآن؟" فليس بالضرورة أنه يسأله عن الوقت، بل قد يوحي القول –بصورة ضمنية- أن الوقت قد حان للذهاب، ويمكن أن يُفهم هذا القصد انطلاقا من مجموعة المقدمات المنطقية المعتمدة في تفسير قولة ما، والتي تشكل عادة ما يسمى بالسياق Context.

3. كيف تتم عملية التأويل في نظرية المناسبة؟

إن استفادة نظرية المناسبة من علم النفس المعرفي تظهر -كما ذكرنا سابقا-من خلال محاولة الكشف عن الأسباب التي تقف خلف عمليتي إنتاج الكلام وتأويله، ومن ثم فإن تفسير العمليات التأويلية التي يقوم بها المخاطَب للوصول إلى مقاصد المتكلم، يستند -بلا شك- على آليات معرفية إضافة إلى الآليات اللغوية التداولية المؤصَّلة في البحث التداولي الكلاسيكي، وبذلك يتضح أن عملية تأويل الخطاب في نظرية المناسبة تتم من خلال الجمع بين بعدين اثنين: بعد تداولي وبعد معرفي، "فالبعد التداولي يظهر من خلال التنصيص على أن المنطلق لتأويل الملفوظات ذو طابع لساني، أما البعد المعرفي فيتضح من خلال التأكيد على أن الذهن لا يخزن المعلومات بطريقة عشوائية، بل إن فهم الملفوظات وتأويلها عبارة سيرورات ذهنية ينجزها المخاطب لكشف مقاصد المتكلم من جهة، ولبناء تمثل للكون أو تعديله من جهة أخرى" (ختام، 2016، صفحة 123)

إن الوصول إلى التأويل التام للأقوال لا يكتفي بما توفره الأنساق اللغوية من معطيات، بل لا بد أن يستند على المعطيات المعرفية التي تجري داخل الذهن البشري، وهو ما يعني أن الآليات اللغوية تعد مدخلا أوليا للتأويل التداولي الجزئي الذي يساعد المخاطَب على إنشاء فرضيات متعددة- بمساعدة السياق- حول الأقوال، ولا يكتمل هذه التأويل إلا بوجود الآليات السيكولوجية الموجودة داخل النظام المركزي للذهن، من هنا تم اعتبار الفرضيات والحدس والتخمينات التي يوفرها النظام اللغوي مرحلةً مهمةً للفهم والاستيعاب، لكن لا تعد حاسمة ونهائية، إذ لا بد من مراعاة الأسس السيكولوجية، وهذا ما يوضحه المؤلفان بقولهما: "إن قيمة مفهومنا النظري للصلة (المناسبة) ستعتمد في النهاية على قيمة النماذج السيكولوجية التي تستعمله، ولا سيما على قيمة نظرية الاستيعاب أو الفهم اللغوي الذي يسمح لنا بصياغتها" (سبيربر و ولسن، 2016، صفحة 213)

وبلغة فودور، فإن عملية تأويل الأقوال تمر عبر ثلاث مراحل متتالية:

- في المرحلة الأولى تتلقى المحولات Transducers المعطيات اللغوية وتعمل على ترجمتها إلى نسق يقرأه نظام الدخل[1] المختص بمعالجة المعطيات اللغوية.
- في المرحلة الثانية تعالج هذه الترجمة بواسطة نظام الدخل اللغوي الذي يُمكّن من تقديم تأويل أول للمعطيات المدركة تأويلا ترميزيا، لكنه لا يكتمل إلا بوصول المعطيات إلى النظام المركزي.
- في المرحلة الثالثة (روبول و موشلار، 2003، صفحة 74) يصل التأويل إلى النظام المركزي Central system، الذي تقع عليه مهمة إتمام هذا التأويل، وتتحقق هذه المهمة بدرجة كبيرة من خلال مقارنة المعلومات مع معلومات أخرى معروفة سلفا، أو معلومات أخرى وفرتها -في الآن نفسه- أنظمة طرفية أخرى، كما تتحقق نتيجة عمليات استدلالية.

ومن جانب آخر ترى نظرية المناسبة أن الوصول إلى المقاصد المناسبة يتطلب الموازنة بين نتائج التأثيرات السياقية والجهد المبذول الذي يقوم به المخاطب في معالجة القولات، "إذ كلما زادت كمية

[1]– يرى فودور أن الذهن يتكون من أنظمة أو قوالب، كل نظام يختص بمعالجة المعطيات التي تصله عبر الحواس، فهناك نظام خاص بالمعطيات السمعية ونظام خاص بالمعطيات الشمية ونظام خاص بالمعطيات اللغوية.. انظر: التداولية اليوم، ص:73

الجهد المبذول في المعالجة انخفضت درجة المناسبة" (سبيربر و ولسن، 2016، صفحة 220) وعليه يذهب كل من سبربر وولسن إلى أن التأويل المناسب للأقوال لا بد أن يعتمد إجراءين اثنين يوصلان إلى الفهم المضبوط لمقصد المتكلم، وهما: (Wilson و Sperber، 2004، صفحة 613)

- اتباع مسار يضمن أقل جهد في حساب التأثيرات المعرفية.
- التوقف حينما تكون التوقعات بشأن المناسبة مُرضية.

وبذلك يصير من المعقول أن يختار المخاطب طريق التأويل الذي يضمن له جهدا أقل لأن المتكلم كما رأينا سابقا يتوقع أن يكون كلامه سهل الفهم قدر الإمكان، وهو ما يجعله يتدخل لتقريب مقصده من مخاطبه بتغيير العبارات أو توضيحها كلما اقتضت الحاجة لذلك. كما أن بإمكانه أن يوقف التأويل حينما يصل إلى تفسير يرضي توقعاته بشأن المناسبة، وبذلك يتضح بأن "طاقة التأويل التي ينتجها النسق المركزي، لم تعد مفتوحة على كل احتمال، وإنما هي مقيدة وموجهة صوب إدراك مقاصد المتكلم ونواياه، وبالتالي فإن السيرورة الاستدلالية تتوقف من تلقاء نفسها عندما يبلغ المخاطَب نتائج مقبولة، تكافئ ما بذل من جهود" (ختام، 2016، صفحة 126)، ولا يمكنه الوصول إلى هذه النتائج إلا بمراعاة السياق التواصلي الخارجي الذي يحف بعملية الكلام، لأنه يلعب دورا مهما في عملية التأويل، وهو المعوّل عليه في تفسير القولات وتجاوز سوء الفهم الذي يقع في التواصل أحيانا.

ومما تجذر الإشارة إليه هو أن نظرية المناسبة قدمت تصورا جديدا للسياق يختلف عن التصور الكلاسيكي المعروف الذي يعتبر هذا السياق معطى خارجيا يتم الاستناد عليه للوصول إلى قصد المتكلم، وخلافا لهذا التصور ترفض هذه النظرية أن يكون السياق شيئا ثابتا ومعطى مستقرا أثناء التواصل، بل تذهب إلى اعتباره بناء نفسيا يجب أن يتغير ويتسع كل حين ليلائم القول، ويعرفه سبربر وولسن بقولهما: "يعد السياق مركبا نفسيا وشعبة من افتراضات المستمع بشأن العالم" (سبيربر و ولسن، 2016، صفحة 42)، هذه الافتراضات هي التي تؤثر في تأويل القول وتضم المعلومات الخاصة بالمحيط الفيزيائي والمعلومات الخاصة بالقولات السابقة المباشرة، والاعتقادات والفرضيات الثقافية العامة.. وبعبارة أخرى يتصل السياق -في نظرهما- بكل ما له علاقة بالمحيط المعرفي أثناء عملية التواصل، لذلك فإن المخاطبين ينطلقون في بداية معالجتهم للمعلومات من فرضية مناسبة هذه المعلومات للسياق، كما يتوقع المتكلمون قبل النطق بالقولة أن المستمعين قادرين على إيجاد سياق يسمح لهم بالتوصل إلى المعنى المقصود، فأي اختلاف بين السياق الذي أراده المتكلم والسياق الذي اختاره المستمع يؤدي إلى سوء الفهم (سبيربر و ولسن، 2016، صفحة 44)

ولضمان اختيار أنسب الافتراضات السياقية لقصد المتكلم وعدم وقوع سوء الفهم أثناء التواصل، يمكن للمخاطب الاستعانة بالمعرفة السابقة التي لديه عن المتكلم، ونمثل لذلك بالمثال التالي:

- الزوجة: هل ترغب في تناول كوب من القهوة؟
- الزوج: إن القهوة تبقيني مستيقظا.

فهنا يكون أمام الزوجة افتراضان:

افتراض سياقي 1: بما أن الوقت ليل، إذا تناول الزوج القهوة فلن يمكنه النوم.

استلزام سياقي 1: الزوج لا يريد القهوة.

افتراض سياقي 2: بما أن الوقت ليل، إذا تناول الزوج القهوة فلن يمكنه النوم.

استلزام سياقي 2: الزوج يريد القهوة.

والذي يحدد أي الاستلزامين مناسب لقصد المتكلم، هو المعرفة المشتركة التي تتقاسمها الزوجة

مع زوجها، فإذا كانت تعلم أن زوجها سيستيقظ باكرا لعمل ما، فإن الأنسب هو الاستلزام السياقي 1، أما إذا كانت تعلم أن الزوج لا زال منهمكا في عمل لا بد أن يتمه قبل النوم، فإن الأنسب حينئذ هو الاستلزام السياقي 2

وأخيرا يمكن القول: إن نظرية المناسبة -بحكم توجهها المعرفي- ترى أن البشر يكوّنون فرضيات في أذهانهم عن العالم تختلف باختلاف التجارب التي مر منها كل واحد منهم، وباختلاف فاعلية القدرات الإدراكية الحسية من شخص لآخر، وهذا كله ينعكس على تفسير القولات وتأويلها، حيث إن كل مستمع لقولة ما يبني تصورا مختلفا وتمثلا مغايرا عن المستمع الآخر، وهذه الاختلافات تؤثر في اختيار كل واحد منهم السياق المناسب الذي يساعده على فهم المعنى المقصود.

الخاتمة:

حاول هذا البحث أن يكشف عن التفسيرات الجديدة التي تحكم التواصل الإنساني، والتي طرحتها نظرية المناسبة باعتبارها نظرية تداولية معرفية، ظهرت نتيجة للتداخل الذي عرفته التداوليات مع العلوم المعرفية خاصة علم النفس المعرفي الذي أمدها بآليات سيكولوجية تتحكم في عمليتي إنتاج الخطاب وتأويله، وهذا ما جعلها تركز على جوانب كانت خفية في البحث التداولي، كالجوانب المعرفية التي تفيد في تفسير عمليات التواصل الإنساني، وقد استطاع هذا البحث أخيرا أن يصل إلى النتائج التالية:

- استفادة نظرية المناسبة من علم النفس المعرفي ظهرت من خلال اعتمادها تصورا جديدا للتواصل الإنساني يركز على الدور الذي تلعبه الآليات السيكولوجية المعرفية في عمليتي الإنتاج والتأويل.
- إعادة النظر في تحليلات غرايس أدى بهذه النظرية إلى اعتبار المناسبة مبدأ عاما للتواصل وليس قاعدة جزئية لتنظيم التواصل، كما أقر غرايس.
- تفسير التواصل الإنساني عن طريق فك الشفرات اللغوية يبقى قاصرا إن لم يراع الجانب الاستدلالي.
- الوصول إلى التأويلات المناسبة للقول لا بد أن يجمع بين المعطيات اللغوية والمعطيات المعرفية التي تجري داخل الذهن البشري.
- تقديم هذه النظرية تصورا جديدا السياق معتبرة إياه بناء نفسيا مرافقا لعملية التواصل، وليس معطى ثابتا ومحددا بشكل سابق كما ذهبت النظريات التداولية السابقة.

قائمة المصادر والمراجع

العربية:

1. الباهي، حسان، (2012). الحوار ومنهجية التفكير النقدي، ط2 أفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
2. البوشيخي، عز الدين، (2012). التواصل اللغوي مقاربة لسانية وظيفية، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان.
3. ختام، جواد، (2016). التداولية أصولها واتجاهاتها، الطبعة الأولى، كنوز المعرفة، عمان.

المترجمة:

4. روبول، آن، موشلار، جاك، (2003). التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: دغفوس، سيف الدين والشيباني، محمد، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
5. سبيربر، دان، ديدري، ولسن، (2016). نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك،

ترجمة: الخليفة، عبد الله، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.

6. فرانتيسكويوس، راموس، (2014). مدخل إلى دراسة التداولية: مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل، تر: حمداي، يحيى، الطبعة الأولى، دار نبيور للطباعة، العراق.

الأجنبية:

7. Deidre, Wilson. Sperber, Dan, (2004). Relevance Theory (The handbook of pragmatics), First published, Blackwell Publishing, USA.
8. Fodor, Jerry, (1983). The Modularity of mind, First Publiished, The MIT Press, Cambridge.
9. Sperber, Dan, Deirdre Wilson, (1995). Relevance: communication and cognition (second edition, Blackwell publishers, Cambridge.